الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

تاريخ مدينة مليانة من خلال الكتابات التاريخية

The History of Malyana According to Historical Writing

Dr. Ibrahim NEGHLI
Hassiba Ben Bouli Chlef University -Algeria-

د. إبراهيم نغلي
شعبة علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي -الشلف-
i.neghli@univhb-chlef.dz

ملخص

تفيد الاكتشافات والحفريات الأثرية في الجزائر على أن حضارة إنسانية وجدت منذ فترة ما قبل التاريخ إلى الفترة المعاصرة، نظرا لموقعها الاستراتيجي الهام والمتميز، مما أدى إلى تأسيس مدن ذات أنماط متميزة، تحمل نقاط مشتركة مع المدن الأخرى التي تم تشييدها بعدد من الدول الواقعة بشمال إفريقيا وأوروبا، وتحول العديد منها إلى تراث عالمي مصنف ومدرج ضمن قائمة المواقع والمدن العالمية الأثرية، كما أن مكانة الأمم تقاس بمقدار ما أسهمت في التقدم والحضارة، وقد كان للجزائر مظاهر حضارية مختلفة ومتنوعة، ولكنها أصبحت أشمل وأعمق في ظل الإسلام، هذا التنوع في الحضارات أدى إلى تأسيس عدة مدن مختلفة الموضع، فجل مناطق الجزائر تحتوي على مدن ومواقع ومعالم أثرية وتاريخية أسست منذ الفترة القديمة، كتلك المدن الموجودة بولاية عين الدفلى، منها مدينة مليانة التي هي محور بحثنا هذا، والذي هو عبارة عن دراسة تاريخية أثرية لأهم المحطات التاريخية لمدينة مليانة، وهذا من خلال المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها بالمنطقة، وكذلك من خلال الحفريات التي أقيمت بالمنطقة في الفترة الاستعمارية التي كشفت عن مدى التنوع الحضاري للمدينة، وأهم المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ مدينة مليانة عبر العصور، مع إبراز أهمية موقعها الجغرافي الذي ساعدها في التطور والازدهار، وكذا التطرق لأهم المعالم التاريخية والأثرية المعروفة بالمدينة التي لازالت قائمة إلى يومنا هذا .

لعب القضاء دور في إقرار العدل بين الناس وضمان الحقوق ونشر الهدوء في الدولة وبين الرعية كما أن اغلب من تولى مهنة القضاء كان من كبار العلماء والفقهاء

الكلمات الدالة: عين الدفلى، مليانة، مدينة، مكتشفات أثرية، مواقع، معالم تاريخية.

Abstract

According to the discoveries and archaeological excavations in Algeria, human civilization has existed since a long time ago mainly due to its important strategic and privileged location. Thus, many civilizations with distinct patterns have been established, which share common points with other cities established by many countries from South Africa and Europe. The majority of these countries turned into a world heritage classified among the international the archaeological sites and towns. Furthermore, the value of nations is evaluated depending on its achievement of development, and civilization.

Algeria has had several characteristics of civilization, but it has a deep structure thanks to Islam. This hind of civilization has led to the establishment of several towns from different points since the past and old Historical moments as:

Ain Dafla and the city of «Malyana» which is our subject of research. This research study is based on the Historical and Orthographical field by focusing on the most important historical events of Malyana. In addition to the discoveries that have been found in Malyana, since the colonization period. These discoveries revealed the civilizational diversity of Malyana town, as well as the most important sources and Bibliography that tackled Malyana during different moments. Moreover, they determine the importance of its strategic geographical situation, which plays a major role in its development. All this, without missing the historical and the Orthographical monuments, which Malyana is famous of and still exist until our days.

Keywords: *Ain Defla, Melyana, Medina, archaeological finds, sites, historical monuments.*

مقدمة

تعد المدن والمواقع الأثرية التي تزخر بها ولاية عين الدفلى إرثا حضاريا يمثل جزءا من تاريخ الجزائر عامة والمنطقة خاصة، إذ أنها تشهد على فترات تاريخية مختلفة، أنشئت بمواد محلية، ورغم ذلك لا تزال البعض هذه المدن والمواقع قائمة ومحافظة على جل أجزائها مثل ما نجده بمدينة مليانة، فرغم التخريب الذي تعرضت له من طرف المستعمر الفرنسي، والسكان إلا أنها لازالت محافظة على جل وحداتها ومكوناتها المعمارية بمختلف أنواع العمائر، وهذا يدل على أن المدن والمواقع الأثرية كباقي الآثار تعاني الإهمال واللامبالاة، وعلى هذا الأساس تم اختيار" مدينة مليانة " بغرض إخراجها من دائرة النسيان والتعريف بها لعرض صورة واضحة عن أهم المحطات التاريخية للمدينة وأهم معالمها الحضارية، ولفت الانتباه لهذا الإرث الثقافي والمعماري والحضاري الذي تحويه هذه المواقع خاصة باعتباره سجلا تاريخيا وشاهدا ماديا على حضارة تحدت أصعب الظروف الطبيعية وكذا جعلها أقطابا سياحية وتاريخية، مع إبراز أهمية هذا الإرث الحضاري المهم الذي هو من ذاكرتنا وتاريخ أجدادنا لنولي اهتماما بالغا للمحافظة على هذه المدن والمواقع الأثرية والتاريخية، فالأمة التي لا تهتم بتاريخها وماضيها لا مستقبل لها، ومن هذا المنطلق نطرح الإشكال التالي :

ما هي أهم المحطات التاريخية التي عرفتها مدينة مليانة؟ وما هي أهم معالمها الحضارية؟.

الموقع الفلكي والجغرافي

تقع مدينة مليانة بين خطي عرض 29°-36° شمالا وخطي الطول 2°-21° غربا، وهي تابعة اداريا لولاية عين الدفلى باتجاه الشمال، حيث تقع أسفل منحدر جبل زكار، بارتفاع 750م عن سطح البحر، وتبعدعن الجزائر العاصمة بـ 120كلم وتبعد عن ولاية شلف بـ100 كلم وعن مقر الولاية بـ 30 كلم، يحدها من الشمال بلدية عين التركي وبلدية بن علال، ومن الشرق بلدية عين التركي، ومن الغرب بلدية بن علال، ومن الجنوب بلدية خميس مليانة وبلدية عين السلطان، لتتخذ المدينة شكلا بيضويا تبلغ مساحتها حوالي 23.773 هكتار.[1]

خريطة ولاية عين الدفلى (موقع مدينة مليانة) عن مديرية الثقافة لولاية عين الدفلى

التضاريس

تقع مدينة مليانة ضمن سلسلة جبال الظهرة، وتقابلها سلسلة جبال الونشريس من الجنوب، ويعتبر جبل زكار امتداد لهذه السلاسل الجبلية، حيث يصل ارتفاعه إلى 1550م ، كما أن الطابع الجبلي يغلب على طبيعة المنطقة، وتشكل هذه الجبال مصدر للمياه في المنطقة لأنها مصدر لمجموعة من منابع المياه، أما فيما يخص سهول المنطقة هي باتجاه الجنوب وهي عبارة عن تلال منحدرة، حيث تتميز هذه السهول بخصوبة عالية، ومن أهمها نذكر: سهل العناصر، سهل البرقوق، سهل الفج، سهل زقالة.

المياه

تتمتع المدينة بمياه غزيرة تلبي حاجيات السكان،وتسقي حقول الكروم وبساتين البرتقال والليمون والرمان، وكانت تتوزع المياه عبر شبكة تحت الأرض مصدرها الينابيع والآبار الكثيرة والجداول المنبعثة من جبل زكا، كما تنبعث من هذا الجبل عين خرارة عظيمة تطحن عليها أرحية بقوتها، وبالمدينة مياه سائحة[2]، أما الينابيع فهي منتشرة بكثرة في الجهة الشمالية الغربية للمدينة يصل عددها إلى حوالي 15، وهي على بعد 300م من سور المدينة[3]، كما يمربها نهر الشلف، وهو نهر كبير ومشهور يشق فحوصها، ويسقى أراضيها الخصبة وادي بوتان، ويوجد في أسفل المدينة واد عميق[4].

المناخ

إن الموقع الاستراتيجي لمدينة مليانة يجعلها تمتاز بمناخ البحر الأبيض المتوسط، إذ يتميز مناخها بشتاء ممطر وصيف دافئ، وللمناخ ثلاثة عناصر أساسية وهي :

الحرارة

مناخ المنطقة دافئ ومعتدل،و في أشهر الشتاء ممطرة أكثر بكثير من الصيف في مليانة ، و متوسط درجة الحرارة السنوي هو 16.4 درجة مئوية .

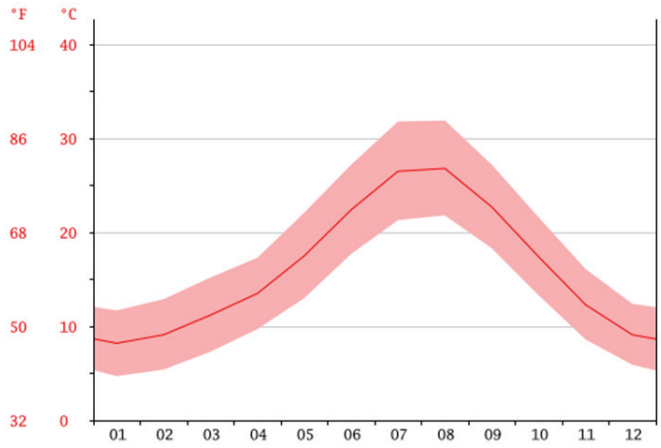

الرسم البياني لدرجات الحرارة لمليانة (عن محطة الأرصاد الجوية ولاية عين الدفلى)

الأمطار

إن متوسط الهطول الأمطار هو 727 ملم الشهر، تكون بكثرة في شهري جانفي وفيفري والأشهر الأكثر جفافًا هي شهري جويلية وأوت، كما تعرف المنطقة تساقط الثلوج.

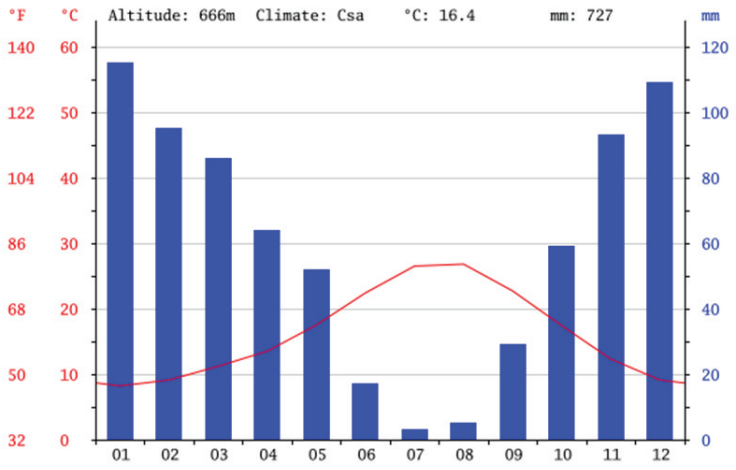

الرسم البياني لتساقط الأمطار بمليانة(عن محطة الأرصاد الجوية ولاية عين الدفلى)

الرياح

غالبا ما تهب الرياح شمالية وشمالية غربية خلال الصبيحة، وجنوبية غربية أثناء الظهيرة بصفة ملحوظة [5].

الغطاء النباتي

تتمتع مدينة مليانة بغطاء نباتي كثيف ومتنوع، ومن بين الأشجار الموجودة بها نجد الفلين والبلوط والبرتقال والرمان، كما أن أهل المدينة اشتهروا بممارسة زراعة الأرز،حيث ورد عن أحد الفرنسيين عن فلاحة الأرز في الجزائر فيقول: "ناحية مليانة إلى فلاحة الأرز وكذلك ناحية مينا (دائرة غليزان)، غير أن أرز مليانة أجود من الأخر"، كما تشتهر مدينة مليانة بزراعة قصب السكر والحبوب وتشتهر بزراعة الحبوب والكروم والحمضيات بأنواعها متعددة وخصوصا الكرز.[6]

نبذة تاريخية عن مدينة مليانة

1ـ أصل تسمية مدينة مليانة

اختلف المؤرخون على تسمية المدينة فمنهم من يذكر مليانا أو ماليانا ومنهم من يذكر زوكابار ومنهم من يذكر كولونيا اوغسطا، إن التسمية الأولى مليانا فهي تنسب إلى السهل الخصب لواد بوتان أين تقع خميس مليانة حاليا، بحيث تفيد بعض المصادر التاريخية أن عائلة رومانية كانت تحتل هذه المنطقة تدعى مانليا، إذ في سنة 1849 اكتشف نصب تذكاري يحمل هذا الاسم اللاتيني مانليا[7].

أما تسمية زوكابار فقد وردت في كتابات بعض المؤرخين ونسبوها إلى أصل فينيقي تعني سوق القمح، ومنهم من يرجعها إلى أصل ليبي بربري ايزيكر أبادير، وتعني جبل الإله أبادير وهذا نسبة إلى جبل زكار، أما المؤرخ بلين فذكرها باسم كولونيا اغسطا التي تعني مستعمرة الإمبراطور أغسطوس[8].

وأثناء الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ودخول العرب أخذوا التسمية اللاتينية ماليانا وعربوها لتصبح ملآنة، وهذا للخيرات التي توجد بالمنطقة، بعدها اشتق اسم مليانة وأطلق على المنطقة [9].

وخلال هذه الفترة شهدت مدينة مليانة ازدهار كبيرا بفضل موقعها الاستراتيجي، ذكرها اليعقوبي باسم مذكرة، وكان ذلك في القرن الثالث للهجرة والتاسع ميلادي[10]، و في القرن العاشر ميلادي ذكر ابن الحوقل اسم مليانة (إن مليانة على مرحلة من الخضراء وأنها أزلية لها أرحية على نهرها وسقي كثير من واديها)[11].

ثم ذكرها البكري في القرن الحادي عشر ميلادي (... إنها رومية فيها أثار وأشجار وأنهار عليها الأرحية، جددها زيريبن مناد واسكنها ابنه بلقين...)[12].

وفي القرن الثاني عشر ميلادي ذكرها الجغرافي الإدريسي (ومن الخضراء إلى مدينة مليانة مرحلة، وهي مدينة قديمة البناء أزلية حسنة البقعة، كريمة المزارع، ولها نهر يسقي أكثر مزارعها وحدائقها وجناتها...)[13].

كما زار المدينة الرحالة ابن بطوطة في القرن الرابع عشر، وأقام بها عشرة أيام دون ان يعطي تفاصيل وصفيه للمدينة.

كما زارها كذلك ابن خلدون في القرن الخامس عشر (...مليانة حاضرة من أعمال مغراوة القاطنين بسهول شلف، وان اسمها بكسر الميم وسكون اللام، وان بلقين خطط الجزائر ومليانة والمدية..)[14].

كما ذكرها أيضا ياقوت الحموي فقال: "عندها مليانة بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الألف نون، مدينة في أخر إفريقية بينها وبين تنس أربعة أيام، وهي رومية فيها أبار وأنهار..."[15].

أما حسن الوزان فقد ذكرها في منتصف القرن السادس عشر: "مليانة تقع على قمة جبل... والجبل الذي بنيت فيه المدينة تتفجر منه عيون كثيرة، وتكسوه غابات من شجر الجوز بحيث إن سكان الناحية لا يشترون هذه الفاكهة بل ولا يقطفونها... وتحيط بالمدينة أسوار عتيقة من جهة تطل على الوادي، ومن جهة أخرى يوجد منحدر ينطلق من هضبة وادي الشلف يذكرنا بمدينة نارني الايطالية"[16].

أما الرحالة الإنجليزي "شاو" فإنه يقول: " من يرى المدينة من بعيد يظن أن بها منازل ضخمة وجميلة وأثارا قديمة عديدة حتى إذا وصل إليها الزائر خاب ظنه، فهي قرية لا مدينة وديارها من قرميد بدلا من السطوح... وأحسن شيء هناك زيادة على المياه المتدفقة هو المنظر الرائع المطل على أراضي جندل ومطماطة وغيرها من أراضي القبائل"[17].

المراحل التاريخية لمدينة مليانة

مليانة مدينة تاريخية تمتاز بموقع إستراتيجي جعلها تحتل مكانة هامة عبر العصور، وهذا لتوفر شروط بناء المدينة كالموقع الاستراتجي أو الموقع المفضل ذو المناخ الحسن من اعتدال المكان وجودة الهواء وسعة الماء والقرب من المرعى والاحتطاب وتوفر الغذاء .

وقال الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي << النهر الجاري، المحراث الطيب، المحطب القريب السور الحصين، والسلطان إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها ...>>[18]

وكما أشار ابن خلدون إلى أنه << ... وجب أن يراعى ... دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها، فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع الأماكن إما على هضبة متوعرة من الجبل ... حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعي في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا

كان راكدا خبيثا، أو مجاورا للمياه الفاسدة أو المنافع معفنة أو المروج الخبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها ... والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب....>>[19].

من خلال هذه الشروط يتضح لنا أن المدينة توفرت على الشروط من نهر جار لم ينفد إلا في السنوات الأخيرة، وبناء المدينة أسفل جبل زكار وإشرافها على جميع النواحي لمدى بعيد محاطة بسور تتخلله أبراج ومداخل اندثرت، ولم يبقى إلا السور المحاط بالمدينة من الجهة الجنوبية والشرقية والغربية، وقربها من المحطب للعيش وعين تزود أهل المدينة وبساتينهم بالماء.

إن الحفريات التي أجريت بالمنطقة، والآثار التي لا تزال قائمة لحد الآن، شاهدة على تعاقب حضارات وحقب مختلفة على المنطقة منذ فترة ما قبل التاريخ إلى غاية سقوطها في أيدي الاحتلال الفرنسي.

1.2 فترة ما قبل التاريخ

إن مليانة شاهدة على تاريخ عريق، فمن خلال الحفريات التي أجريت بقيادة الباحث Bloch في شمال المدينة تم اكتشاف بعض الأدوات الحجرية من السيليكس قرب ينابيع واد بوتكتون [20]، تعرف من خلالها على أدوات العصر الحجري الأوسط تنتمي للصناعة العاتيرية، وأخرى مصنفة ضمن الصناعة القفصية العائدة للعصر الحجري المتأخر[21] وهذا حسب طريقة الصنع والمادة المعمول بها.

كما أن صانعوا هذه الحضارة سكنوا الكهوف وبعض الخيام، وكان تمركزهم دائما قرب الوديان [22]، وهذا نظرا لأن الموقع غني بمصادر المياه ومكسو بغطاء نباتي كثيف.

2.2 الفترة الفينيقية

من المعروف عن الفينيقيين بأنهم يشتغلون بالملاحة البحرية، وأسسوا عدد من المراكز والمحطات التجارية والوكالات والمصارف ذات الصبغة الاقتصادية، التي أصبحت فيما بعد مقر إقامة للجاليات الفينيقية[23]، وقد اقتصر نشاطهم على التجارة وبثوا نفوذهم في المناطق المجاورة من خلال المبادلات التجارية وتبين ذلك من خلال الصناعات والمدن الأثرية التي تشهد على ذلك.

وقد تأثر الملوك النوميديون بالحضارة الفينيقية حتى أنهم جعلوا من البونية لغة رسمية[24]، فأصبحت بذلك مليانة مستوطنة فينيقية نتيجة للامتداد الفينيقي المتواجد على الشريط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط خاصة "أيول "(مدينة شرشال حاليا)، التي كانت مركزا اقتصاديا ومقرا استراتيجيا لتنظيم أمن الممالك البربرية[25]، وقد اكتشفت عدة نقائش بالمنطقة منها نصبتذكارينحت فيه شكل آدمي يرجح على أنه رسم للإلهة تانيت، كما عثر أيضا على نقيشة مهداة لشخص يحمل اسم فنيقي هو:"أبو قراط بن بودميلكار"hippocratis bodmilcaris filuis"، واكتشف نصب آخر يحمل كنية فينيقية ويتعلق الأمر" بأكتافيوس باريكوس" "octavius baricus"، حيث أن اسم "baricus" اشتق من أصل الكلمة bak التي تعني مبارك[26].

3.2 الفترة الرومانية

أجمعت مختلف المصادر التاريخية على أن الرومان هم من أسسوا مدينة مليانة على سفح جبل زكار[27]، حيث عثر فيها على تماثيل وبقايا أعمدة (أعاد العثمانيون استعمالها في البناء)، وهي حاليا محفوظة بالمتحف البلدي بمليانة، وتدل هذه الآثار على التواجد الروماني بالمنطقة، فقد كانت ملجأ للملوك النوميديين، حيث اعتزل بها بوكوس أثناء حروبه ضد يوغرطة الذي كان مطاردا من طرف روما، وقد ألقي القبض على يوغرطة بالقرب من المدينة، في كمين نصبه له بوكوس الثاني عام 33 ق.م، اغتنم أولمافيوس الفرصة لإنشاء حاميات عسكرية على الشريط الساحلي من بينها حامية عسكرية بزوكبار ما بين 27 – 25 ق.م لمراقبة سهل شلف، كما عثر الرحالة "شاو Chaw" على كتابة أثرية مفادها بأن حفيد الإمبراطور الروماني "بومبي" دفن بهذه المدينة[28]، ونظرا لموقعها المحصن اضطر القائد الروماني تيودوس في سنة 375م احتلال مدينة زوكبار لقهر ثورة الزعيم البربري فيرموس[29].

ومع دخول القرن الخامس ميلادي غزا الوندال شمال إفريقيا، فقاموا بمختلف أنواع التخريب التي مست المعالم الحضارية للمدينة الرومانية، فهم لم يكونوا أهل حضارة ولا يقدرون قيمتها، بل هم قوم غلاظ يرتبط اسمهم بكل مفاهيم الوحشية والهمجية كانت سلطة الحكم للبلاد عندهم بالاستبداد المطلق[30]، وبذلك لم يخلفوا وراءهم أي أثار حضارية في البلاد، لأنهم كانوا بدائيين متوحشين لا يفهمون للحضارة أي معنى[31].

4.2 العهد البيزنطي

بعد ضعف الوندالين وهزيمتهم، برز البيزنطيون ورثة الرومان في أملاكم لإفريقيا الشمالية، فبسطوا نفوذهم خاصة على الشريط الساحلي في الجهات الغربية أما الناحية الشرقية فقد مدوا نفوذهم فيها إلى الجنوب، وكان همهم محاولة استرجاع الإرث الروماني في وقت قصير، أما المناطق الداخلية لم يتوغل فيها البيزنطيون كزوكبار، لكن التأثيرات المعمارية وصلت إليها، فقد تم العثور بالمنطقة على قطعة تزيينية بأسلوب مسيحي نقشت عليها عجلة عليها رموز بيزنطية تؤكد مدى التأثير المحلي بالبيزنطيين، كما أنه عثر على تاج عمود كورنتي بأطلال قصبة المدينة عليه رسوم ذات أسلوب بيزنطي[32]، كما أن قلة الشواهد المادية وانعدام المصادر التاريخية وندرتها لاتمكننا من التعرف على مجريات الأحداث التي مرت بها المنطقة.

2.5 الفترة الإسلامية

عندما انتقل الفاطميون إلى مصر استقر بلكين بن زيري في المغرب الذي كان في خدمتهم، فعقد له المنصور بعض مدن المغرب كتيهرت وما جاورها وأشير التي تحصن بها فقام ابنه زيري بأمر والده وبناء على رغبته بإنشاء مدينة الجزائر المنسوبة إلى بني مزغنة بساحل البحر، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمتونة، وهم بطن من بطون صنهاجة، وهذه المدن من أهم وأعظم مدن المغرب الأوسط على أيام الزيريين، وبمليانة سوق جامعة وأبار عذبة، وهي عامرة آهلة على نهر عرفت ازدهارا كبيرا في التجارة والصناعة وكثرت خيراتها[33].

وفي القرن 12م بعد سقوط دولة المرابطين قام علي بن إسحاق بن علي لمناهضة الموحدين، ونقل المعارك إلى المغرب الأوسط ضد الدولة الجديدة مستعينا ببني هلال وببعض القبائل البربرية، وبعدما استولى على بجاية في 580هـ زحف نحو وادي الساحل متجها نحو الغرب فدخلها[34]، فنهض أبو زكريا الحفصي وغزا تلمسان وتوقف بمليانة، فعقد للعباس بن منديل على مغرواة، فعقد العباس السلم مع يغمراسن، ولما توفي العباس قام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل، فصلحت الحال بينه وبين صاحب تلمسان إلى أن غزا يعقوب بن عبد الحق المغرب وهزمهم في أوطانهم سنة 647هـ، وانتفض أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية، وكان خبر هذا الانتفاض أن أبا العباس أحمد المليانى، كان كبير وقته علما ودينا ورواية وكان عالما بالسنة والحديث فانتهت إليه رئاسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر الحفصي 659هـ، وبلغ الخبر إلى تونس فبعث أخاه أبا حفص إلى مليانة واقتحموا المدينة، وفرَّ أبو علي المليانى ثم عاد أبو حفص إلى العاصمة وعقد لمحمد بن منديل على مليانة، فأقاموا فيها الدعوة الحفصية، وبعد عامين من حكمه للمدينة تآمر عليه ثابت وعابد بن منديل (وهما إخوانه) فقتلاه،وحكم عمر بن منديل مليانة بمؤازرة يغمراسن[35].

2.6 مليانة في العهد العثماني

في بداية القرن السادس عشر قدم إلى الجزائر الأخوان عروج وخير الدين، وبعدما استوليا على مدينة الجزائر نهض عروج لبسط نفوذه على الجهات الغربية من البلاد، فاحتل ما بين 1516- 1517م مليانة وتنس رغم مقاومة صاحب الإمارة حميد العبد، وكانت مليانة في العهد العثماني تابعة لبايلك الغرب وعاصمتها مازونة، ثم أعيد تنظيم الإيالة إداريا فأصبحت تابعة لدار السلطان وتحت حكم الباشا مباشرة.[36]

أدراك العثمانيون أهمية مليانة إستراتيجيا، بما أنها تشرف على الطريق الواصل بين الجزائر ومدن بايلك الغرب مثل تلمسان مستغانم ووهران، فأسكنوا بضواحيها قبائل المخزن، غير أن سكان الناحية وهم ريغة كثيرا ماخرجوا على الحكم الجديد،ومن أشهر هذه الثورات ثورة (بوطريق) سنة 1544م، قتل فيها الحاكم العثماني بمليانة فخرج إليهم صاحب الجزائر وهو الحاج بشير فهزمهم وبدد جموعهم[37].

وفي القرن السابع عشر كانت مليانة تحت سلطة القائد عثمان الكردي والد محمد الكبير باي وهران ثم خلفه ابنه إبراهيم الكردي،وعند ضعف السلطة العثمانية في شمال إفريقيا دخلت مليانة تحت حكم علي بن سليمان ابن عم سلطان المغرب الأقصى الذي امتد نفوذه من المغرب إلى غاية مليانة.

عين السلطان عبد الرحمن المغربي محي الدين والد الأمير خليفة له على تلمسان لإزالة الخلاف بين الحضر والكراغلة وكان ذلك في 08 مارس 1831م، كما كلفه بإرسال محمد الشرقي إلى مليانة لإدارتها تحت حكم المغرب، واستمر هذا الوضع إلى غاية ديسمبر 1831[38]، وبعد الحصار الشديد للسواحل الجزائرية والغزو الفرنسي للجزائر وسقوط مدينة الجزائر ظهرت عدة مقاومات ضد الاحتلال.

2.7 مليانة في فترة الأمير عبد القادر

أثناء دخول الاحتلال الفرنسي للجزائر وظهور عدة مقاومات عندها بويع الأمير عبد القادر من طرف القبائل وأعيان المنطقة لقيادة المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، الذي شرع في احتلال المدن الجزائرية الواحدة تلو الأخرى.

قاد الأمير عدة معارك ضد العدو، كان فيها النصر حليفه مما دفع بالجنرال "دي ميشال" لإبرام معاهدة صلح سميت باسمه، وكان ذلك في 1834/01/24، وبفضل هذه المعاهدة استطاع الأمير توسيع حدود دولته وضم العديد من المدن، فدخلت مليانة في نفوذه ابتداء من 15 ماي 1835م، أسند إدارتها إلى الحاج محي الدين الصغير الذي ساهم في تحقيق الانتصار السياسي الحربي الذي أحرزه الأمير، شغل منصب خليفة للأمير على مليانة بلقب باي على مدى عامين 1835-1837م، وبعد وفاة محي الدين خلفه ابن أخيه محمد بن علال خليفة على مليانة[39].

وقد شارك محمد بن علال في 03 يوليو 1839 بتازة (حاليا تسمى برج الأمير عبد القادر) في جنوب مليانة في اجتماع ترأسه الأمير، وحضره جميع الخلفاء والأعيان، وقرروا استئناف القتال، وبعد ذلك عقد الجنرال "بيجو" معاهدة مع الأمير يوم 24 صفر 1253هـ- 30 ماي 1837م عرفت باتفاقية تافنة، ولقد استقر الأمير في مليانة في الفترة الممتدة من 17 فيفري إلى 7 جوان 1839م، وفي هذه الفترة قام بإنشاء مصنع للأسلحة والبارود بمليانة.[40]

وبعد نقض المعاهدة شن الجنرال "فالي" حملة ضد مليانة وغيرها من المدن، فكان ذلك في 15 جوان 1840م، أما السكان فقد أخلوا المدينة وأضرموا النار فيها، ولقد بقي الأمير في نواحيها يحارب الجيش الفرنسي وألحق به خسائر كبيرة،غير أن "فالي" كان مصرا على احتلالها، فاعترض طريقة محمد بن علال الأمر الذي دفع به للانتقام فقام بتدمير قبيلة ريفية

كاملة وأحرقوا الديار وصادروا المؤونة والعملة، وهرب سكانها إلى جبل زكار، وفي 11 نوفمبر من نفس السنة استشهد محمد بن علال وقام الاستعمار بقطع رأسه وتعليقه على باب المدينة وسقطت المدينة في أيدي الاحتلال، فقاموا بتشويه المآثر التاريخية للمدينة، ومسخ طابعها المميز، وأدى الزحف الأوروبي العمراني على مدينة مليانة التاريخية العتيقة إلى ضياع طابعها الإسلامي، فلم ينج من هذا التشويه إلا جزء صغير من المدينة القديمة.[41]

2ـ أهم المعالم الأثرية والتاريخية المتواجدة بالمدينة

إن المنشآت العمرانية التي تحتويها مدينة مليانة تدل على أهميتها التاريخية، ومن هذه المعالم نذكر:

المركب الديني أحمد بني يوسف

أحمد بن يوسف هو أبو العباس أحمد بن يوسف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الذي ينتهي نسبه إلى إدريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية توفي سنة 1527م، يقع هذا المركب في الحي الشمالي الغربي للمدينة، ويتكون من ثلاثة أقسام: الضريح،المسجد والزاوية، صنف كمبنى تاريخي سنة 1978م، بني هذا المعلم سنة 1774 م من طرف محمد الكبير باي وهران على الطراز العثماني، وفي سنة 1840 حول جزء منه إلى مستشفى عسكري[42]، كما شهد عدت عمليات ترميم مؤخرا سنة 2008، وتم اكتشاف قنوات صرف المياه ترجع إلى فترات سابقة.

صورة من داخل المركب الديني

منارة مسجد البطحاء

تقع هذه المنارة في الطريق الرئيسي للمدينة المؤدي إلى المتحف البلدي (شارع الأمير عبد القادر)، كما تتوسط ساحة الأمير، كان يدعى مسجد البطحاء أو المسجد الكبير الذي يرجع إلى العهد العثماني، وخرب في عهد الاستعمار، حولت منارته إلى ساعة كبيرة، أطلق على المكان اسم ساحة الكنيسة أو ساحة كارنو، وهي إحدى المآذن التي لازالت قائمة إلى يومنا هذا تندرج ضمن المساجد 25 التي كانت بالمدينة، وهي مصنفة منذ 1995 م.[43]

صورة لمنارة البطحاء

مصنع الأسلحة

بعد إبرام معاهدة تافنة أنشأ الأمير عبد القادر مصنعا للأسلحة خارج أسوار المدينة سنة 1839م، هذا المصنع يحتل موقعا استراتيجيا خصص لصناعة البنادق،وقبل وصول الاستعمار الفرنسي إلى المدينة قام الأمير عبد القادر بتخريبه،وبعدما وجد الفرنسيون المبنى في حالة خراب قرروا إعادة بنائه، وحول إلى مطحنة، فهو عبارة عن بنايتين الأولى عثمانية وتحتوي على غرف نوم والثانية بناها الأمير عبد القادر لما دخل مليانة سنة 1835م، وهي حاليا عبارة عن متحف صناعة الأسلحة الأمير عبد القادر، صنف في 1995م كمعلم تاريخي[44].

صورة لمصنع الأسلحة

مقر خلافة الأمير عبد القادر (المتحف البلدي)

يقع هذا المعلم في وسط مدينة مليانة في ساحة الأمير عبد القادر، ويرجع تاريخ بناء هذا المعلم إلى العهد العثماني الذي اتخذه الحاكم عثمان الكردي والد محمد الكبير، الذي كان قائدا على مليانة ثم بايا على المدينة كمقر له في أواخر القرن السابع عشر، ولقد سميت هذه الدار بدار الباي لأنها كانت مقرا لإقامة باي مليانة أثناء الفترة العثمانية، وبعدها حول إلى مقر الخلافة للأمير عبد القادر سنة 1835م، وبن علال خليفته سنة 1837- 1840 م، ثم حول إلى مقر للمقاطعة العسكرية الاستعمارية، ورمم سنتي 1991 و2001 م، وتم تحويله إلى متحف بلدي، وهو مصنف منذ سنة 1992م.[45]

يضم هذا المتحف قاعة للأسلحة قاعة المسكوكات، قاعة المقاومة الشعبية،قاعة الثورة التحريرية الوطنية، قاعة فن العمارة والحديقة التي تحتوي على بقايا عناصر معمارية، يختصر المتحف تاريخ مليانة العريق الممتد عبر قرون من الزمن،ويقدم الدليل المادي على حقيقة هذه الوقائع والأحداث.

صورة لمقر الخلافة (المتحف البلدي)

الأسوار المحيطة بمدينة مليانة

ترجع هذه الأسوار للفترة الرومانية، وكانت تحيط بالمدينة من كل الجهات، ثم أعيد استعمالها من طرف العثمانيين الذين جلبوا نفس الحجارة من بعض البقايا الأثرية من المواقع الرومانية المجاورة،ورممت كذلك من طرف السلطات الاستعمارية سنة 1859 م، وهي على طول 3 كم، ولها بابان الباب الغربي باب وهران والباب الشرقي باب زكار، وهي مصنفة منذ سنة 1995 م [46].

صورة لبقايا أسوار المدينة بالجهة الجنوبية

خاتمة

إن معرفة مستوى حضارة الإنسان يتوقف على معرفة عمرانه أو تطور مدينته ، لأن المدينة عنصر من عناصر الحضارة وهذا ما ينطبق على مدينة مليانة، ومن خلال هذه الدراسة التي قمنا بها حول تاريخ مدينة مليانة وأهم المعالم الحضارية لها مكنتنا من استخلاص بعض النتائج متعلقة بها، إذ تبين أن المدينة خضعت لعدة عوامل مختلفة في تأسيسها، كما أنها مطابقة لشروط بناء المدينة، الموقع الاستراتجي أو الموقع المفضل ذو المناخ الحسن من اعتدال المكان وجودة الهواء وسعة الماء والقرب من المرعى والاحتطاب وتوفر الغذاء، كما أنها عرفت جل الفترات الزمنية المختلفة بداء من فترة ما قبل التاريخ إلى الفترة المعاصرة مع دخول الأمير عبد القادر لها، عكس بلديات الولاية المعروفة التي لم تشهد هذا التنوع في الفترات التاريخية ومعالمها الحضارية ورغم مرور الزمن إلا أن المدينة لازالت محتفظة بتاريخها ومعالمها وطابعها الأصيل، وكذلك من بين النتائج هي الوضعية التي آلت إليها المدينة من إهمال وسقوط بعض أجزاء من أسوارها، ولذلك نتوجه إلى مسئولي قطاع الثقافة والولاية خاصة والساهرين على القطاع أن يولوا اهتماما بالغا لمثل هذه المدن التاريخية والأثرية والمحافظة عليها بإدراجها في المحميات الأثرية أو القطاع المحفوظ، وذلك لحمايتها من الضياع و جعلها قطبا سياحيا بامتياز.

الهوامش

1- أرشيف مديرية الثقافة لولاية عين الدفلى.

2- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص101.

3- ودان بوغفالة، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة في العهد العثماني، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الجزائر، 2009، ص 86.

4- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص101.

5- محطة الأرصاد الجوية، ولاية عين الدفلى .

6- محمد الحاج صادق، مليانة ووليها الصالح سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص41.

7 - BLOCH(A) . Etude sur le nom deMiliana , B.AA.tome 5.1975. Alger. p 173 .

8 - BLOCH(A) .ibid. p 176.

9- محمد الحاج صادق، المرجع السابق، ص 41.

10- هاينريش فون ماليتسان، ثلاثة في شمال غربي افريقيا،ترجمة أبو العيد دودو،الجزائر 1976،ص 194.

11- ابن الحوقل ، صورة الارض، بيروت،1962، ص 88.

12- أبو عبد الله البكري،المغرب في ذكر بلاد المغرب وإفريقية والمغرب المأخوذ من المسالك والممالك،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،ص69.

13- الإدريسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه و نشره هنري بيرس، الجزائر 1957، ص 113 .

14- ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ، الجزء الثاني، ص 544

15- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، المجلد 5، بيروت،1977، ص 196.

16- الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي، وصف افريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1983 م، ص 155.

17- Shaw: Voyage dans la régence d'Alger –ed-bouslama tunis ,1980,p282.

18- ابن أبي زرع علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، الرباط 1913 ، ص 33 .

19- ابن خلدون عبد الرحمن، المرجع السابق ، ص ص 617 /620 .

20 - BLOCH(A) ; op cit. p 176.

21 -Ibid. p 177

23- مولاي بلحميسي، مليانة ووليها الصالح سيدي احمد بن يوسف، مجلة الأصالة، الجزائر 1976،ص 56.

24- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص26.

25- محمد البشير شيتي،سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م 40-م)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1985،ص137..

26- بن يوسف عباس كبير، تقرير الوكالة الوطنية لحماية الآثار، الجزائر 1996، ص2.

27- هذه الآثار محفوظة بالمتحف بمنطقة مليانة، أنظر عباس كبير بن يوسف، المرجع السابق، ص16.

28- محمد الحاج صادق، المرجع السابق، ص40.

29 - Shaw . op cit. p 283

30- بن يوسف عباس كبير ،المرجع السابق،ص3.

31- صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين،دار العلوم للنشر والتوزيع،الجزائر 2002،ص33

32- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص56.

33- نفسه، ص66.

34- سعد زغلول عبد الحميد،تاريخ المغرب العربي الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيين إلى قيام المرابطين،الجزء الثالث،منشأة دار المعارف، الإسكندرية،2004،ص192.

35- مختار حساني، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية،الجزء الثاني،دار الهدى،الجزائر،2011،ص331.

36- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث الجزائر . المدية. مليانة، دار الالفية لطباعةوالنشر، الطبعة الأولى، الجزائر، 1971،ص298.

37- صالح عباد،الجزائر خلال الحكم التركي،دار الألمعية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2013،ص543.

38- محمد الحاج صادق، المرجع السابق، ص 42.

39- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة ،الجزائر 1982،ص 87.

40- عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق،ص298.

41- بن يوسف عباس كبير، المرجع السابق،ص 45.

42- محمد الحاج صادق ، المرجع السابق، ص43

43- نفسه، ص 45.

44- بن يوسف عباس كبير، المرجع السابق،ص 47.

45- أرشيف مديرية الثقافة لولاية عين الدفلى .

46- أرشيف مديرية الثقافة لولاية عين الدفلى .